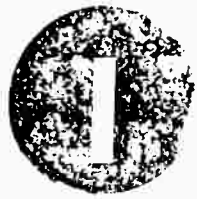

حادثة

ما حدث كان فى ميدان روكسى بمصر الجديدة بالقاهرة ، الساعه الثانية والنصف بعد ظهر أول أيام عيـد الأضحى عام ١٣٩٩ هـ الموافق ١٩٧٩/١٠/٣١ م . والشمس ساطعة . والميدان يموج بالبشر ، البعض يسرع الخطى والبعض متمهل ، فاليوم عيد . وإشارات المرور تتلون ، وسيارات تقف وأخرى تعبر . ولاح كل شيء فى هـدوء إلا بعض أصوات السيارات ، وأصوات من البشر تسمع أحياناً .

ثم تمزق الهدوء عند ما ندت صيحات عالية من البشر ، فقد دهمت سيارة مسرعة لم تراع اللون الأحمر ، دهمت رجلا وألقته أرضاً وأسرعت مبتعدة . وكادت تدهم قطة ساذجة كانت تعبر الطريق ولكنها تنبهت فقفزت طائرة إلى مكان آمن . وحطت على بقايا طعام . وكانت تلعن رعونة سائقى اليوم فى مواء رافض . ولكنها حطت على طعام تركه الآكلون وقد استمتعوا بوجبة من اللحم شهية على الأرض المخضرة ، والظاهر أن أحدهم شبع أو نسى قطعة لحم كانت من نصيب القطة التى انزوت بها فى مكان آمن . واحتفلت هى الأخرى بالعيد .

والجسد فى الميدان ملقى وجموع من البشر تهرع إليه ، وأصوات تستنكر . وهذا حقها ، وأصوات تلعن أصحاب السيارات الخاصة ، وهذا ليس من حقها . واندفع إلى القوم المتكأكئين حول الملقى أمينا

شرطة ، صاحا ، فانفرج لهما طريق إلى المصاب . مالا عليه ، ثم صيحتان إلى الجمهور بالافتراق . واتصال لاسلكى من جهاز مع كل منهما وران صمت قليل ، وإذا بصيحة ثانية من أحد الأمينين بالتفرق . . . والمسألة سليمة إن شاء الله . . . .

لست أدرى ، ولكننى كنت عابراً فى سبيلى ، ودفعنى بعض الفضول إلى التوقف ، والحادث فى ميدان روكسى ، وهناك دار (سينما) ، وأمامها خلق يرومون رؤية (الفيلم) فى حفل الساعة الثالثة . وكانوا كثرة . ودلفت وسط الجمع ، وسألت ماذا جرى ؟

— رجل يظهر أنه مخمور لم ير السيارة . . . فألقته أرضاً

— بل هذا لم يحدث ، فإن إشارة المرور تسمح له بالعبور ولكن السيارة الزرقاء لم تحترم الإشارة

— بل كانت صفراء

— لا إنها كانت رمادية اللون . . . لقد رأيتها

— نعم هى سيارة (ملاكى — القاهرة)

— يا سيد ، لقد كانت سيارة أجرة فيها رجل وسيدتان وكانت تجرى بسرعة وألقت الرجل أرضاً

— يعنى كلامك هذا — أنك تكذب عينى . . . طيب ، على الطلاق أنها كانت ملاكى

— تطلق زوجتك من أجل معاندة كلامى ؟

— أنا لست متزوجاً

— لا . . الموضوع ببساطة أن الأستاذ المصدوم كان يعبر الميدان وهو يتطلع إلى الإعلان الكبير على واجهة دار (السينما) فلم يلحظ السيارة المسرعة ، فدهمته . . .

— ربما كان معجباً (بالفيلم) وأبطاله وهم ممثلون كبار وهو (فيلم) عظيم .

— بل هو (فيلم) تافه

— هل شاهدته ؟

— لا ، لم أشاهده ، ولكنها كلها قصص مكررة

— إذن كيف تعطى هذا الحكم ؟

— يا عمى . . . هو أكل عيش ، وكلها (سينما) وضحك على العقول . . . قل يا باسط .

وقد استمعت إلى هذا الحوار . . وأكثر منه ، وكل واحد يفتى ويعطى أحكاماً جزافية ، وهناك قطة نعمت بقطعة لحم تركها الآكل ، وهنا جسد على الأرض راقد وهو مصاب ، وهناك أمينا شرطة اتصلا لاسلكيا بالمسئولين .

وقد تسمرت قدماى فى مكانى ، ربما لرغبة داخلية فى معرفة ماذا يحدث .

وسمعت من بعد (سارينة) سيارة إسعاف . فحمدت الله إذ كان الاتصال اللاسلكى سريع المفعول . ووصلت سيارة بيضاء على ظهرها ألوان كهربائية متلألئة ، جعلت القوم يحترمونها وابتعدوا أكثر بفضل أوامر أمينا الشرطة . جميل هذا . أما أنا فقد وجدت نفسى اقترب . . لماذا ؟ لست أدرى .

عند ما رأيت وجه المصاب وهم يحملونه على (نقالة) إلى السيارة ، ت . . . هذا أحمد أنا أعرفه .

صرت فى ثانية فى بؤرة الاهتمام . وتطلع الجميع إلىّ ، ورددت ، هذا صديقى وزميلى أحمد ، وأنا أعرفه . وانشقت الأرض عن ضابط الشرطة مقترباً منى . وجه متجهم صارم فيه نحد . وعدة أسئلة دون فرصة للإجابة . ثم قلت : هذا زميلى الأستاذ الدكتور أحمد ، لم أره منذ سنوات طوال مرت . وآخر أخبارى عنه أنه يعمل فى إحدى جامعات أمريكا أقصد الولايات المتحدة الأمريكية .

وصار شىء من الهمس بين الضابط ومن معه . . . ثم شىء من الاحترام لى . جميل هذا الذى يحدث . وظهرت القطة الساذجة مقتربة فى جرأة بالغة نحو أحمد . . وأبعدوها فى استنكار .

وأنا أنظر إلى أحمد وهواجس الدنيا تمر بى ، ماذا جاء بى إلى هنا فى هذه اللحظة ؟ شىء ما يجوس بخواطرى . وقد أحسست دغدغة انفعالية تغمر أعصابى وتنساب إلى كل جسمى .

القطة هناك واقفة ومترقبة . وسألت الضابط إذا كان من الممكن أن أصحب أحمد المصاب . أجاب : بل يجب . وإلى مستشفى منشية البكرى صار الركب . فهى أقرب مستشفى والرجل (أحمد) على سرير وحوله أطباء وممرضات ، والعجب أن هذا يوم عيد . ولكن ما زال فى الدنيا خير . وكشوف طبية ، وأشعة وعينات دم وبول . . . الخ . وأنا موجود . . . والقطة دلفت فى نعومة إلى حيث كنت ، وبقرب قدمى جلست . ونظرت إليها ، فإذا عيناها تمتجديان . ربتت على جسمها الناعم فى هدوء فإذا بها جالسة فى سرعة معى فى اطمئنان .

وسألني ضابط الشرطة أن أصحبه ، وقد مرت معه . قلت له إجابة عما سأله :

هو . أحمد أحمد أحمد ، هذا إسمه . . . درسنا سوياً في الجامعة ومعهد التربية ، وعملنا مدرسين لسنوات قليلة . سافر بعدها في بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ونال الدكتوراه في التربية . وعاد إلى مصر ، وعملنا سوياً ، ثم عاد إلى الولايات المتحدة ، وعمل هناك . . . وانقطعت أخباره عنا . وسمعت منذ سنتين أنه صار ذا شأن هناك وأنه أخذ الجنسية الأمريكية ولكنه احتفظ بجنسيته المصرية . وقد تزوج من مصرية اسمها شوق وهي معه هناك ، وله منها طفلان . . . وله من عقله إنتاج علمي مشرف له كأستاذ ، ومشرف لمصر ، إن هذا واحد من أبنائها . وربما جاء إلى مصر لزيارة أو لأبحاث . . . لست أدري . وعندما سئلت ، قلت لا أعلم أين يسكن ، وكل ما أعلمه عن زوجته شوق أنها كانت زميلة لنا ، وكانا متحابين وتزوجا .

وصاح أحمد ورآني وعرفني وأمسك بيدي قائلا إنه بخير وأن زوجته في شقة مفروشة هنا في قرب من ميدان روكسي ، وأعطاني العنوان وأوصاني أن أكون مترفقا ورقيقاً عند ما أحمل الخبر . كانت شوق طالبة الجامعة في الكلية معنا ، الحلوة الأنيقة الذكية الأخت المتعاونة المجاملة . . . ، صاحبة الكرامة والعزة ، القادرة على أن توقف أي فرد عند حده . . . ، إعجاب كبير من الكثير . . . ولكن أحمد طوق قلبها وأشعل وجدانها فاختارته لها شريكاً للعمر .

وما كان أمامي إلا أن أنقل إليها خبراً غير سار بعد سنوات طوال لم أرها . وترددت قبل أن أدق الباب . . . واستجمعت كل الجرأة ، فتح الباب أحمد الصغير ، وسألت عنها ، فإذا بها أمامي . ومرت لحظات من صمت قطعته في لهفة الترحاب بزميل وصديق عزيز لزوجها . وأنهيت

إليها الخبر بمد معاناة نفسية . . . . وهى عظيمة فى أسئلتها المنطقية العلمية وهى كبيرة وهى تعطى طفليها المعلومات المحدودة التى عرفتها منى ، وهى عاقلة إذ تطلب منى بأمر أن تذهب معى . وعلى الباب وجدت القطة حملتها وأسلمتها إلى أحمد ، ابن أحمد المصاب .

. . . . . .

فى المستشفى تولت شوق زمام الأمر فى كل حزم الحب . وطلبت التقارير الطبية ، واستمعت إلى أقوال الشرطة ، وقد هربت السيارة صاحبة الإصابة ، وليس هذا الآن مهماً . لكن الأمر الهام ماذا نفعل بأحمد ؟ . . . . . كسر فى عظام الفخذ ورضوض كثيرة متفرقة ، ونزيف داخلى هناك . . . والأمر يتطلب عناية طبية كبيرة الاهتمام والتأثير .

لا أدرى لماذا كانت هذه القطة شديدة الانفعال وهى دائماً بين قدمى ، ولا أعلم كيف جاءت ، ولكنها جاءت ، والاتصالات مستمرة . . . . وشوق فى أعلى حالات تماسك الانفعالات . إذن فهى مستثنى المعادى . كنت أراقبها وهى (المايسترو) فى العمل ، كنت أشاهدها المصرية المتحركة . . . نفس شوق الطالبة الجامعية والتى أعجبنا بها وأخذها أحمد له . . . . أراها قوة ، ومثل شوق الملايين ولم تتح لهن الفرصة . والمجتمع فى تقدمه يتطلب عقول وأيادى هذه الملايين لتعمل مع ملايين الذكور فى تعاون لصالح هذا المجتمع . وموقف شوق العاقل عظيم ، وكان لا بد لى أن أسعد بتصرفاتها .

وقد اشتد الأمر بأحمد ، وصارت نذر بخطر مدلهم وبنتائج أرجو ألا تحدث . تقول لى شوق ونحن فى طريقنا إلى المعادى إن أحمد جاء بعد أن درس الموقف التعليمى فى مصر . . وله فى أمريكا باع طويل وهام فى ميدان التربية ، وأراد متطوعاً أن يسهم بعلمه لخير بلده وهو قبل كل شىء

مصرى ويعشق مصر عشقاً كبيراً . وسوف نعود إليها كل العودة إن آجلاً أو عاجلاً . . . وهو سفير كبير لمصر بعلمه فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية .

. . . . . : : :

وعلى ضفاف النيل بناء شاهق وفى داخله ملائكة رحمة وأجهزة علاج ورجال إداريون وفنيون على أعلى المستويات . وكل هذا مبشر بعلاج صادق لأحمد . وشوق مطمئنة . وقال قائلون لها ، هو مصرى أمريكى ومن حقه علاج فى أمريكا . وقالت : عند ما يعجز الطب المصرى . . . وأشك أنه يعجز : : : :

ودفعنا مئات من الجنيهات كبداية . وهذا لا يهم ، ثم محاولات حتى استقر أحمد المصاب فى حجرة . والأمر عادى فى الاهتمام به كمريض أو كمصاب : ولا أدرى ماذا حدث بعد أن قلت لواحد ممن كانوا حولى : إن المصاب الدكتور أحمد شخصية لهـا وزنها والأمر يمكن أن يصل إلى مستويات عليا تتعدى المستويات العادية . وشوق بجوارى وقالت ولست أدرى ماذا قالت ، ولكنه يعنى حتمية أكبر فى رعاية أحمد .

ولكن الغريب فى الأمر أننى سمعت بعد دقائق أن عم أحمد هو وكيل وزارة الحربية وأن خاله نائب وزير الصحة ! ! . . . وانقلبت الدنيا رأساً على عقب : : : وحصل فى المستشفى ما يمكن أن نسميه بالتعبئة العـامة . وصارت شوق وأنا محل كل التقدير والاهتمام . . . وأحمد المسجى فى آلامه هو أيضاً محل الاهتمام . . . . !! ولا ندرى كيف جاءت هذه الصلات العائلية .

ونقل أحمد إلى حجرة فخمة تطل على النيل العظيم .

وما زلت موجوداً عند ما حان الوقت أن أرى الأخ أحمد . وكان واعياً .

وعرفنى وسألنى أسئلة كثيرة عن زملائنا وأين هم ، ولا بد أن يقابلهم . قلت كثير منهم تركونا إلى أراض أخرى فيها خير مادى أكثر . . . وأرى أن بعضهم على حق فقـــد ضنت الدولة عليهم فى الأجور فآثروا أراضى أخرى ، على أن بعضهم يتحملون عبء رفع راية ذات رسالة وعليهم أن يبقوا حيث هم ، وسوف يعود من خرج إذا أراد الله .

قال أحمد : العود أحمد لى ولهم ، وبلدنا فى حاجة ماسة إلينا .

وسأل أحمد عن قضية الساعة وهى تطوير التعليم . قلت : خير كبير فى هذا العمل ، وخير فى التخطيط ، ولـكن كل الخير فى التنفيذ ، وأنت تعلم الموقف الاقتصادى لبلدنا . . . . ونحن فى عصر التربية . . . والتربية كما تعلم قوة ، وسابقاً قيل إن المعرفة قوة . وهناك قناعة بضرورة التغيير والتطوير . . . . ونقول بل إعادة التشكيل والتنظيم . . . بل يتغير الشكل والمضمون . . . . وفى جرأة الواثقين بعلمهم . . . . ويجب أن يكون الأمر معروضاً على كل الوزارات . . . . أكرر كل الوزارات . لأن التربية تهم كل فرد وهى متغلغلة بالحق وبالقوة فى كل نشاط بشرى . . . .

ربما ركبت موجة من انفعال صادر عن إحساس صادق ، وأحمد يبتسم ، ولو استطاع لقفز ، ولـكن الارتياح كان يقفز من عينيه ، ومن قسمات وجهه ممزوجاً بالألم .

ويقول أحمد لزوجته شوق . . . كانت الإشارة لى خضراء ، وبدأت أعبر الطريق ، وهو جزء من الميدان ، وفجأة أحسست بشىء يدفعنى فى قسوة ، وارتفعت إلى فوق ثم هبطت إلى تحت فى آلام كثيرة أحسستها بعد أن استقر بى المقام على أرض الميدان الواسع . وقالت شوق : إن سائقاً أخطأ وعصى قانوناً ، فأصابك ، ولا ذنب لك ، فهذا قدرك ، ولنحمد الله ونسأله الشفاء . . . .

وتركتهما ، وجلست ، وأحنست بشيء يداعب قدمى ، إنها هـذه القطة الساذجة المخلصة . . أيضاً . ونطت إلى طالبة فى حركتها المداعبة وهى فى كنف الأمن والطمأنينة ، وجسمها طرى وشعرها أسود حرير ناعم ، وذيلها يزغرد طرباً . ربما أكون متجاوزاً إذا قلت إن فى عينيها تساؤلات عما يحدث وما مصير أحمد . هى جزء من الحادثة ، وربما حدث لها ما حدث لأحمد لولا هذه القفزة الصاروخية التى حطتها على بر الأمان بالقرب من قطعة لحم شهية . وربما تقول فى سرها . . . إننا معشر القطط لنا سبعة أرواح . . . . ثم من حقى أن أكون معكم فأنا شاهدة عيان لما حدث ، ولو استطعتم أدلكم على لون السيارة . . . .

سرحت بسرعة بعيداً إذ خشيت أن تقول فى سرها رقم السيارة أيضاً ، ربما كنت أنا أفكر لها ومعها . . . من يدرى ؟

خرجت شوق من عند أحمد ، ووجهها فيه حمرة من غيظ وهى تقول : . . . كان لا بد لى أن أقول لهم جميعاً من هو زوجى وأنه لا يمت بصلة قرابة لفلان أو علان وأنه كغيره من أفراد البشر يجب أن ينال ما يمليه شرف المهنة الطبية من عناية ورعاية . والمال موجود وبوفرة إن كان هذا يعنى شيئاً هاماً . . . . ربما نسيت شوق فى غمرة حياتها فى مجتمع متقدم بعض الأمور . واقترب منا طبيب يكاد شعر رأسه يشتعل شيباً ، ونظارته سميكة وابتسامته عذبة . قال لها . . . . . يا ابنتى ما رأيته من اهتمام مفاجئ ، ومن تصرفات ناس لهم مصالح خاصة أسرعوا بطرحها والمصاب يتألم ، خطأ ، وأنا اعتذر لخطأ غيرى ، فلا تغضبى ، ما زال هناك من يقدرون ويعرفون ، فبعض الأطباء نسوا أبو قراط ، ونسوا إنسانية الطب ، وهم قلة قليلة . . . . أحمد إن شاء العلى القدير بخير ، وبعون الله سوف يصل إلى الشفاء . . . . والمسألة تحتاج إلى وقت ، وهو الآن ينام وسوف يطول نومه ، وهذا خير له ، وأنتما الآن فى حاجة إلى الراحة .

. . . والموقف أيها الطبيب الحكيم ؟ . . سألت شوق ، وجاءها الرد . . . فى الغـد نجرى العملية لنصلح بإذن الله ما أفسده سائق سيارة ما . فى ثانية واحدة كسر فى أحمد عظاماً تحتاج إلى أسابيع حتى يعاد البناء . . . . وأقول فى داخلى : سهل أن تحطم وصعب أن تبنى ، ولو استطعنا أن نقلل من التحطيم والتخريب لصار الأمر غير الأمر .

نظرت إلى القطة الساذجة صاحبة الشعر فى فحمة الليل ، والعينين العسليتين ، وكأنما تسأل . . . أين الآن ؟ غريب أمرك أنت أيتها القطة الناعمة ، وأنت دخلت — دون أن أدرى — فى حياتنا ، هل أنت حقاً ساذجة ؟ أم نحن السذج ؟ وكيف استطعت أن أقرأ أفكارها ؟ . . . . . ماذا جلبت لى يا أحمد ؟ بل ماذا حدث لى ؟

• • •

كنت على موعد مع أشعة شمس الصباح المبكر فى لونها الأصفر وهى تدلف إلى الحجرات وأنا أدق باب أحمد . . . . .

. . . . غريب غريب هذا الذى حلمت به — يقول أحمد — أنامونى مساء الأمس ، وطفت فى آفاق كثيرة وكثيرة جداً ، ولكن العجب أنه كان معى وورائى رجل أحس أننى أعرفه ، ولكننى لا أعرفه — أحياناً كنت أحس بكفيه على كتفى ، ونحن نصعد جبالاً وننزل وديااً . لم يفتح فمه بكلمة ، ولم أر مطلقاً عينيه ولا قسمات وجهه . لكنه كان معى ودائماً خلفى فى كل خطوة . . . . هو إحساس غامر ساحق يعترينى ويطوق كل مخاوفى ، بل تشككى وترددى . . . وهو معى هادئ باسم ولا أرى ابتسامته ، متفائل ولا أرى نظرات عينيه . . . . أقسم بالله العلى القدير أنه كان معى وحوالى . . . . مشعاً كل الطمأنينة والإيمان فى نفسى . . . كل الأمان ! !

سعادة لا تعبر عنها الكلمات وارتياح نفسى ينسحب أمامه البيان بوجود

هذا الرجل الغامض . ما يعطيه من إحساس دافىء هو غير دنيوى وليس من نبت الأرض . . . إنه شىء ملائكى — إن صح لى التعبير — ولكنه معى بهدوئه المطمئن وأنا معه بكل ما استطيع من عجزى وضعفى . . . لكن الله معى .

لم أدر ماذا أقول ، ولكن كل خلجة فى أحمد تقول ، وتقول الكثير . إذ ما حدث له فى حادثة سيارة ألقته فى أعلى الفوق ثم إلى أسفل التحت وهشمت بعض عظامه ، ربما فعلت شيئاً فى تيار فكره وهو تحت تأثير منوم ما . ربما فى سياحته فى آفاق بعيدة ومختلفة وفى خوف وهو يرتادها وحده ، صورت له أموراً . . . ومن يدرى ؟

ما حدث لأحمد بعد منوم خفيف ، قد يتطور بعد تخدير كامل لإجراء عمليات جراحية توصف بأنها كبرى . . . وستجرى بعد ساعات قليلة . الأمر الهام أن أحمد كان مستعداً ومتقبلاً وراغباً بكل القناعة .

وجاءت شوق ومعها أحمد الصغير وشوق الصغيرة ، ولم تمض إلا لحظات وكنا جميعاً خارج الحجرة ، فقد بدأ العد التنازلى لإجراء هذه العملية أو العمليات .

وماء النيل ينساب هادئاً ، والأشرع البيضاء تكسو الجو بهاء مع أشعة الشمس ، والسيارات تغدو مسرعة على الطريق العريض ، والرياح تداعب أغصان الأشجار . . . وجماعة ملثمة فى حجرة العمليات يتناولون جسم أحمد . . . . .

• • •

وجد الكاتب نفسه مقوداً بغير إرادة إلى عالم رحب واسع فى نظام بديع وترنيمة عسلية ، أرضه أمواج من سحب تعلو وتهبط ، تحوطه ألحان باسمة وعبير مد غدغ فى سرور متغلغل . . . وجسمه يذوب فى احتواءات كلها مودة .

وتلاشى كل شىء مادى حوالى . . . هكذا أحسست وأنا اقترب من أحمد وهو فى الغيبوبة .